

ماهية العقلانية عند جيلالي ليايس من خلال مؤلفاته

فكروني زاوي

جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس

fekrouni_zauoi@yahoo.fr

الملخص:

كان الراحل "جيلالي ليايس" باحثا ومفكرا يعمل في سبيل حصر إمكانيات الجزائر وبناء توقع علمي كفيل بإخراج البلد من المأزق الاقتصادي والمضي قدما لضمان مستقبل أجيال ما بعد البترول. وكان فوق هذا وذاك، وبهذا وذاك من أبرز الباحثين، وضعه انتماءه إلى حقل العلوم الاجتماعية، في موقع بين الفكر ومشروع تحقيقه، فلا هو ذلك المفكر المنقطع إلى التأمل يفهم الواقع بالمجرد، ولا هو ذلك المتمذهب، يتصور حلول الواقع في الأيديولوجية. لقد عمل طوال حياته بدأب ومثابرة وصدق ونزاهة، وتواضع وصبر لكي لا تكون العلوم الاجتماعية مجرد افكار و نظريات، ولكي تنبني الحقيقة السياسية و الاقتصادية على الحقيقة العلمية بوصفها الحقيقة الواقعية. لقد كان في الفكر، وفي الممارسة، بمعناها الأعمق والأشمل، يجسد على نحو نادر المثال وحدة الفكر والعمل.

الكلمات المفتاحية: العقلانية؛ الماهية؛ الجيلالي ليايس.

مقدمة :

كان الراحل "جيلالي لباس" باحثا ومفكرا يعمل في سبيل حصر
إمكانيات الجزائر وبناء توقع علمي كفيل بإخراج البلد من المأزق الاقتصادي
والمضي قدما لضمان مستقبل أجيال ما بعد البترول. وكان فوق هذا وذاك،
وبهذا وذاك من أبرز الباحثين ، وضعه انتماءه إلى حقل العلوم الاجتماعية،
في موقع بين الفكر ومشروع تحقيقه، فلا هو ذلك المفكر المنقطع إلى التأمل
يفهم الواقع بالمجرد، ولا هو ذلك المتمذهب، يتصور حلول الواقع في
الأيديولوجية. لقد عمل طوال حياته بدأب ومثابة وصدق ونزاهة، وتواضع
وصبر لكي لا تكون العلوم الاجتماعية مجرد افكار و نظريات، ولكي تنبني
الحقيقة السياسية و الاقتصادية على الحقيقة العلمية بوصفها الحقيقة الواقعية.
لقد كان في الفكر، وفي الممارسة، بمعناها الأعمق والأشمل، يجسد على نحو
نادر المثال وحدة الفكر والعمل ، ببعديها: الاجتماعي / السياسي،
والأخلاقي مؤسسا بذلك مع عدد من المفكرين و الباحثين الجزائريين لمشروع
عقلنة الفكر والسياسة، في سبيل عقلنة المجتمع وتحديثه⁽¹⁾.
لذلك سوف نحاول من خلال هذه المداخلة تبين تصور "جيلالي لباس"
للعقلانية من خلال عدد من مؤلفاته و أعماله، بالإضافة إلى أعمال من
كتب عنه و عن أفكاره. وعليه سوف تندرج هذه المداخلة ضمن إطار إعادة

¹ - Taieb Hafsi et autres, Le développement économique algérien : Quelques idées et des propositions, Ed casbah . Alger .2011. P

تأسيس لعقلانية لم تسمح الظروف التي مرت بها الجزائر ببناء لبنة تراكمية لاستمرارها وبلورتها بما يتفق مع الخصوصية الثقافية و التاريخية للجزائر.

1 - السياق التاريخي و المفهومي للعقلانية :

العقلانية هي الاتجاه الذي ظهر في القرن السادس عشر وما بعده، الذي يقول بأولوية العقل منطلقا في عدة معان متكاملة ومتفاوتة:

- 1 - البحث عن علل الوجود و بالتالي عن معقولية وراء الحدث.
- 2 - المعرفة تنشأ عن مبادئ استباقية عقلية و ضرورية وليس عن تجارب حسية ، وهنا العقلانية تتجه بمواجهة التجريبية التي تدعي أن كل ما في العقل ناشيء عن التجربة.
- 3 - إن العقل بحد ذاته شرط في إمكانية التجربة حدوثا وذلك لتنظيم معطيات الإحساس.
- 4 - الإيمان بأن العقل له القدرة على معرفة و إدراك الحقيقة، وبالتالي مواجهة الموقف الذي لا يرى أي إمكانية لمعرفة الحقيقة بسبب تعاليها حيث يدركها الإلهام.
- 5 - البحث عن (قوانين) مطابقة لسيرورة الأشياء على أساس أن كل ما هو موجود معقول وأن كل ما هو عقلي موجود .
- 6 - الإيمان أن الحقيقة موضوعية ونسبية وأن إدراكها عقليا يأتي من موضوعيتها و نسبيتها في الوقت ذاته.

ومنه العقلانية هي في الأصل موقف أو مبدأ فلسفي قبل أن تتحول إلى مذهب للمعرفة منذ القرن السادس عشر. وهذه العقلانية ليست اتجاهها نقيا وطهرانيا⁽²⁾ إنما هي وبخلاصة القول العمل الإنساني الذهني لاكتشاف الواقع وفق صور مفهومية دائمة الغنى.

والمذهب العقلاني هو مذهب الإدراك الكلي وهو مذهب متناوب من ديكرات إلى اسينوزا إلى لينتزر إلى هيجل. ويمكننا أن نقول بأن المذهب العقلاني هو "النظرية التي ترجع الحكم إلى الذهن لا إلى الإرادة، فلا تفسح المجال للظواهر الوجدانية ولا الإرادية في الأعمال الذهنية"⁽³⁾.

وليست العقلانية - في التجربة الفكرية الإنسانية عموما والتجربة الأوروبية خصوصا- إلا نشاطا ايديولوجيا يسعى نحو التزام الإنسان ناحية العقل أو ما سمي بالحس السليم، وهذا النشاط بالرغم من أنه قد حقق نجاحا في بدايات عصر النهضة أو ما يسمى عصور الأنوار إلى أن ارتكاسات واضحة قد ظهرت في القرن التاسع عشر والعشرين، وهي ارتكاسات أقرب ما تكون إلى ردود فعل للمحافظين في مواجهة قوى التغيير⁽⁴⁾، وهي أيضا وفي نفس

² - عبد الله موسى، « إشكالية العقلانية في الفكر العربي المعاصر دراسة في أعمال محمد عابد

الجباري » / *Insaniyat*، إنسانيات | 2001، mis en ligne le 16

janvier 2013, consulté le 14 mars 2014. URL :

<http://insaniyat.revues.org/9652>

³ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1982، ج2، ص 84- 91 .

⁴ - بودون ريمون ، أبحاث في النظرية العامة في العقلانية : العمل الجماعي و الحس المشترك، ترجمة

جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت 2010 . ص 29 .

الوقت ارتكاسات في مواجهة العقلانية التي تحولت في بعض جوانبها إلى تجريد يجعلها تصنف في خانة اللاعقلانية، فلسفة شكلانية تجريدية لا علاقة لها بالواقع ومتغيراته.

وهذه اللاعقلانية – الارتكاسية التي تعتبر التيار الأساسي الذي انتقد بشدة الفلسفة الإنسانية في القرنين 19 و20⁽⁵⁾، عندما بين "ماركوز" أن الخاصية القمعية للعقل لا ترجع إلى طبيعة العقل ذاته، وإنما إلى استعمال اجتماعي مرتبط بالسيطرة والهيمنة والتحكم والكبت سعيًا إلى المردودية والإنتاجية كمبادئ لحضارة وهمية. بيد أن مفهوم الحضارة الحقيقي.

2 - موقف جيلالي لباس من العقلانية :

يرى "جيلالي لباس أن العقلانية تستمد معناها، ومقوماتها، شكلها ومضمونها، من المعنى الذي نعطيه للعقل، ومن السياق التاريخي الذي تندرج فيه الأهداف أو الغايات التي نتوخى تحقيقها بوساطتها، ومن السمات النوعية التي يفصح عنها العمل البشري والإنتاج الاجتماعي بوصفهما قاعدتها الموضوعية، ومن العلاقات الاجتماعية التي تنتجها، أو تفترضها وتحتاج إليها⁽⁶⁾.

⁵ - جورج لوكاتش ، تحطيم العقل . ترجمة الياس مرقص . دار الحقيقة . الجزء الاول (بدون سنة) . ص 7 . 12 . 29 .

⁶ - Taieb Hafsi et autres, Le développement économique algérien : Quelques idées et des propositions, Ed casbah . Alger . 2011. P

فجلايلي لباس كان يشدد على أن العقلانية هي مذهب التعدد والتنوع في رؤية وإدراك الواقع وهي مرتبطة بالتطور الصناعي والعلمي والتاريخي للمجتمع، وبالتالي لا يمكن الفصل بين العقلانية والتطور التاريخي صناعيا وايدولوجيا واجتماعيا واقتصاديا وليس بأحدها فقط ... فالفصل بين هذه المكونات يجعل ممارستها تنفي وجود جدل وتنوع وتعدد قائم في الحياة كما تنفي حقيقة أن التقدم لا يأتي منفصلا عن سياقه، وأن البشرية لا يمكن / ولم يكن ممكن في أي وقت أن تطرح على نفسها إلا المسائل الصحيحة، أي تلك المسائل التي يمكن طرحها والتي يفترض أن الواقع يدفع نحو الإجابة عنها، وأن القفزات بدون تراكمات ضرب من ضروب المستحيل وشكل من أشكال التصور الإيديولوجي المذهب للحركة في واقع مصطنع غير معاش (7)...

فالتاريخ حسب "جلايلي لباس" مؤسس على عقلانية الواقع وواقعية العقل. التاريخ، بوصفه ميدان الضرورة ومحكمة العقل، هو انبساط الروح الإنساني ونموه في العالم، وتوقيع إمكانات على حساب إمكانات أخرى، لذلك فهو يؤكد على عدم مطلقية الحقيقة، " ... وانطلاقا من ذلك يصبح شغلنا الشاغل نقد ما عندنا لنعلن موت حقيقة الآخرين وولادة حقيقتنا، فالتغيير مجاله النفس أولا ثم المحيط ثانيا، والتغيير يشترط القدرة على الإبداع والقدرة

⁷ - جلايلي لباس، في حوار أجرته معه جريدة "Algérie Actualite" عدد 1428، بتاريخ

على الإنتاج، وليس على التأكيد والاستيراد بل على البناء، لأن العكس يستحيل منطقيا وماديا إن لكل شيء معنى، فكل حدث هو حقيقة، وكل حقيقة هي التاريخ. وعليه وجب استيعاب مفهوم التاريخ لتجاوز التأخر الذي نحن عليه".⁽⁸⁾ لذلك نجد يمارس نوع من النقد في تمييز المفاهيم ويحذر من التحريفية (*Dénaturation*) التي تمس الأنظمة فهي بدورها تمس كذلك المفاهيم، ومنه لا بد من إسقاط كل مفهوم على العصر، وبما أن التاريخ يتطور فالمفاهيم تتغير.

فجيلالي ليايس كان يؤمن تبعا لتكوينه السوسيولوجي بفكرة أن الكائن البشري يسلك بوحى من مصالحه وميوله وأحكامه القبلية، وأفكاره تنشأ بتأثير من قوى ثقافية واجتماعية وبيولوجية ونفسية خارجة عن نطاق سيطرته على عكس ما أكدت عليه فلسفة الأنوار عندما شددت على عقلانية واستقلالية الكائن البشري في بناء أفكاره وأطلاق أحكامه على الأمور. وهكذا يتفق جيلالي ليايس مع فكرة أن العقلانية هي شيء نسبي وخاص، فما دامت الأحكام و الأفكار هي محددة مسبقا من طرف قوى خارج عن سيطرة صاحبها، فهذا ينفي مصداقية أو عقلانية حكم أو فكرة بمقابل عقلانية حكم أو فكرة أخرى قد تختلف مع الأولى. فكل العقلانيات سواء. أي لا توجد عقلانية صحيحة وأخرى خاطئة .

يصرح جيلالي ليابس أن "أشد المنتصرين للمذهب العقلي يكتفي كل يوم في أحكامه العلمي بدراسة واقع لا يعرفه معرفة عميقة، وأن أشد أنصار المذهب الواقعي تزمنا من جهة أخرى، يعتنق أسلوب التبسيط المباشر كما لو أنه، بوجه الدقة، يقر مصادر المعلومات التي يقرها صاحب المذهب العقلي" (9).

إذن هناك اتجاهات ومذاهب "عقلانية" كثيرة، ومختلفة، كالعقلانية الديكارتية، والعقلانية الهيغلية، والعقلانية الوضعية وما يتصل بها من التجريبية والتطورية والبراغماتية والعلموية، والعلمانية، والعقلانية الكنتية، وثمة العقلانية المنفتحة أو العقل المنفتح ذروة العقلانية المعاصرة. ولعل العقلانية الكلاسيكية كانت تختلف في البديهيات، والمبادئ، لا في الأهداف والغايات، والاختلاف في البديهيات والمبادئ يؤدي إلى اختلاف في النتائج، فالنتائج غير الأهداف، الأولى تنتمي إلى الموضوعية والثانية تنتمي إلى الذاتية وإلى الذاتية.

لقد كان من نتائج هذه العقلانيات الكلاسيكية بروز عقلانية دينامية منفتحة أعادت النظر في مبادئ العقل وتصوراتها، قصد استيعاب المعارف والوقائع الجديدة.

وقد لا نغالي إذا قلنا أن جيلالي ليابس "يتبنى موقف "باشلار" إزاء العقل فهو ليس واحدا وثابتا، بل متعدد ومتنوعا بحسب تعدد وتنوع المجالات

⁹ - تقديم جيلالي ليابس لترجمة عادل العوا لكتاب غاستون باشلار الفكر العلمي الجديد .

المعرفية من رياضيات وفيزياء... وهو فضلا عن ذلك بناء متغير منفتح يساير تحولات المعرفة والواقع.

وهذا يعني أن العقلانية المعاصرة لا ترى ثمة مذهبا واقعيا مطلقا ولا مذهبا عقليا مطلقا ، أي أنها لا تحدد بنية العقل داخل بنية صورية ثابتة منغلقة، ولا تحدده داخل بنية دينامية منفتحة تساير تحولات المعرفة والواقع، وإنما ضمن بنية خارج العقل تنتقد العقل وتزيل الفوارق والحدود بين العقلي واللاعقلي في الإنسان.

إن نزعة نقد العقل هي إحدى المظاهر المميزة للعقلانية المعاصرة، وإذا كان العقل بمبادئه هيمن لمدة طويلة على العقلانية الكلاسيكية، واعتمد على مبادئ اعتبارها أزلية، إلا أن مساره التاريخي قاده إلى اللاعقلانية، حيث إعادة الاعتبار إلى ما كان يعتبر خارج دائرة العقل، وإبراز التداخل الموجود بين العقل واللاعقلي: فالعقل يتحول إلى لاعقلي، واللاعقلي من مكونات العقل نفسه.

وهكذا يجب على المفكر أن يحور لغته لكي يترجم مرونة الفكر المعاصر وحركته، وعليه أيضا احترام هذا الازدواج الغريب الذي يطلب الاعراب عن كل فكر علمي بلغة واقعية و لغة عقلية معا.

3 - عناصر العقلانية وتحليلاتها في فكر جيلالي لباس :

كان "جيلالي لباس" يعتقد أن العقلانية التي تسود الخطاب الفكري المعاصر تقتصر على شكل واحد من أشكالها، و هي التجريبية ، لكنها تجريبية

متأخرة عن تلك التي تهدف إلى استخدام التجريب كمنهج لتحقيق تراكم معرفي يتحول إلى ايدولوجيا أو نظرية استخدام. وفي المقابل ذلك نجد أن الخطاب السياسي المعاصر يستعمل ويلجأ إلى الدوغمائية المذهبية و يحاول تقديمها على نفس شاكلة الوجدانية ، على أنها الخلاص والايديولوجيا المتكاملة في مواجهة النقص الذي اعترى التجريبية. وعليه اعتقد "جيلالي ليابس" أن التجربة العلمية ما هي إلا تطبيق للعقل ونظرا لذلك فإنه يعتقد أن الفكر هو عامل تطور عندما ينقد الواقع⁽¹⁰⁾.

فالعقلانية من هذه الزاوية ذات طابع ممارساتي محض. ذلك أن التحديدات أو التعيينات الفكرية الفلسفية لمقولة العقل و العقلانية، إنما تنفي بقدر ما تثبت تناقضات الواقع المدرك، فلكل ثقافة معقوليتها الخاصة ولكل نظام معرفي عقلانيته الخاصة أيضا⁽¹¹⁾. وهو قول مناف للمقولة الأساسية التي تقوم عليها العقلانية الغربية.

ومن ثم فإن "جيلالي ليابس" لا يسعى لتقديم محددات وتعريفات ابيستمولوجية للمفاهيم والأطر الرئيسة للعقلانية، فهي في تصوره جملة الفعاليات الذهنية التي تحكم- بهذه الدرجة أو تلك من القوة والصرامة - رؤية الإنسان إلى الأشياء وطريقة تعامله في مجالات الحياة المختلفة.

¹⁰ - يوضح جيلالي ليابس هذه الفكرة من خلال تقديمه لترجمة عادل العوا لكتاب غاستون

باشلار الفكر العلمي الجديد .

¹¹ - Liabès D., 2006, Entrepreneurs, privatisation et libéralisation, in Djerbal D et Benguerna M, La quête de la rigueur : hommage à Djillali Liabès . Ed Casbah 2006 pp 135-184.

وفقا لذلك يمكننا الجزم أن تصور "جيلالي ليابس" للعقلانية يتلخص في محاولة الإجابة عن تساؤلات رآها واجبة وضرورية تبعا لوضعنا الحضاري وهي كيف نعقل عالمنا، كيف نفهم، ونعقل واقعنا؟ فالانتقال من سؤال الماهية إلى سؤال الكيفية هو انتقال من التجريد العقلي والتأمل المحض إلى العقلانية بوصفها ممارسة. وهو، أي سؤال الكيفية، سؤال يضع مسألة المنهج، الطريقة، أساسا للفكر والعمل. في هذه الركن بالضبط يكمن تميز "جيلالي ليابس" الذي اتخذ من مسألة المنهج كمدخل لبناء رؤيته وتصوره للعقلانية*.

وعليه فالعقلانية في فكر "جيلالي ليابس" ذات مستويين أحدهما يتعلق بالعقل، و اتساقه ، وبالكيفية التي ينتج بها الأفكار و مدى ترابطها مع الواقع العياني أو يقاربه أو يطابقه. وبالصرامة اللازمة لنزع طابع العصمة والقداسة عن الأشخاص والأفكار والمذاهب والمناهج والظواهرات .. والمحافظة على حقوق العقل وبسط سلطانه على المعرفة. ويتعلق الثاني بممارسة نتاجات ذلك العقل. بحيث أننا نحاكم تلك الأفكار عندما تجرب في الواقع ، و أن نجربها عندما نحكمها. ذلك أن فعالية العقل تكمن في ارتباطه

* يمكن بصفة عامة أن نشير إلى أن رؤية جيلالي ليابس للعقلانية يمكن تتبعها بصورة متكاملة من خلال :

- Liabes D, Une approche strictement économique du secteur privé en Algérie est-elle possible, La Revue du CENEAP, n° 2, juin, 1985 , pp 118-137
- Liabès D , Entrepreneurs, privatisation et libéralisation, in Djerbal D et Benguerna M, La quête de la rigueur : hommage à Djillali Liabes . Ed Casbah 2006 pp 135-184
- Liabès D , Sur la bourgeoisie privée, in Djerbal D et Benguerna M, La quête de la rigueur : hommage à Djillali Liabes . Ed Casbah 2006, pp 17-48.

بالتجربة، حيث يمكن أن نطبق عليه مقولات الفهم. أما ما يتعالى على التجربة، وهو موضوعات الميتافيزيقيا، فليس بمقدور العقل الخالص أن يتوصل بصدها إلى معرفة أكيدة. وإنما ينتج فقط آراء متعارضة، حيث يصير العقل جداليا وسجاليا، ذلك أن المجال الوحيد الذي يمكن للعقل أن ينتج فيه معرفة يقينية هو المجال التجريبي العملي (ارتباط العقل بالتجربة). بمعنى أنه لا بدا للتجريب من أن يذعن للبرهان والحجة، كما أنه لا بدا للبرهان أو الحجة من أن يرجع إلى التجريب. ذلك أن العقلانية هي ميدان التأويل والعقل، في حين أن الواقعية هي التي تزود العقلانية بالمادة المطلوبة لإعطاء تأويلاتها.

لقد قرأ "جيلالي ليايس" الفكر الأوربي مسلحا بالتراث النقدي قراءة غير متذهبة، وغير أيديولوجية. كما قرأ التجريبية لجون لوك وغيره، والفلسفة الوضعية وخاصة "جون لا شيه" و"أوجست كورنو" قراءة نقدية. هذه القراءة المزوجة جعلته يطابق بين العقلانية والتجريبية مأخوذا في تطوره التاريخي من جون لوك إلى باشلار مروراً بديكارت وكانط وهيغل وماركوز؛ وجعلته ينظر إلى الفكر كعامل تطور عندما ينقد الواقع، فالفكر ينتج مقولاته خلال ممارسته لما هو تجريبي. إن تصور ماركوز وباشلار وكرانجي تصور هادف وراهن، وإن العقلانية قبل أن تكون فلسفة هي منهج عمل وممارسة، وفق شروط تاريخية محددة لواقع أو عالم هو بذاته نتاج ومكون للعقل.

إذن العقلانية هي مزوجة بين العقل والتجربة، عقل الواقع بما هو واقع جدلي متغير ومتحرك، إمكاني واحتمالي. إن "كون العقلانية هي مزوجة"، أي

عملية تعرف وتعقل مطردين، قوامها انبساط الذات في العالم وفي التاريخ، بتوسط العمل والممارسة، واستعادة موضوعية العالم والتاريخ إلى الذات العاقلة والعارفة، ومن ثم، فإن العقلانية في نظره هي الفكرية أولاً، والواقعية ثانياً، بالتلازم الضروري. إن مقولة الواقعية في وعيه مؤسسة على مبدأ: "كل ما هو واقعي عقلائي، وكل ما هو عقلائي واقعي"، وعلى مقولة هيغل المركزية: "مكر العقل" أو "مكر الله"، هذه المقولة التي تشكل ركيزة الموضوعية؛ مكر العقل ضد مكر البشر، منطق الواقع والتاريخ ضد حسابات ونوايا الرجال ودوافعهم الشخصية وأهدافهم، وعليه فإنه لم يكن يرى من معنى سيئ للمثالية سوى الذاتية أو الإرادية التي تخرج الواقع من الرأس. والموضوعية ليست بحال من الأحوال الحتمية والقدرية إلا بقدر ما تعنيان الضرورة والرهان الذي يحيل إليها الواقع.

يواجه القارئ، في فكر جيلالي لباس، عناصر عقلانية مستمدة من الفلسفة الوضعية الحديثة والمعاصرة، وتواجهه، بوجه خاص، عناصر هيغلية وباشلارية؛ لكنها بوصفها كذلك، لا تعدو كونها عناصر مختلفة ومتخالفة. أصالته وتفرد، تكمن في إطلاله على المناطق المختلفة التي يقيّمها الفكر الاجتماعي: "فلسفة، الاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع.. إلخ" من خلال ثقافته الموسوعية وسعيه الدائب إلى "تثقيف عقله" والتقدم باستمرار في معرفة الحقيقة تبعاً للمنهج الذي اتخذ لنفسه في الفكر والعمل. وجعل كل علم من تلك العلوم شاهداً و محاكم للعلوم الأخرى، من أجل معرفة أوثق. ففي نظره، الغائية

هي الماهية الحقيقية لسائر العلوم الاجتماعية وإلا فلا فائدة من علم ولا من معرفة. من هنا نستطيع أن نفهم معارضته الماركسية بالعقلانية وهي أهم ما يميز تصوره للعقلانية والأدق معارضة الماركسية بالغائية، إذ لا بد من إضافة العلل الغائية التي هي مجال حرية الانسان. ولعل جهده الفكري، تركز على إبراز العلاقة الواقعية العقلية، التاريخية، بين الفكر والعمل، بين الذات والموضوع بين الحرية والضرورة، بين المثالي والواقعي. وعلى جعل العقل يعمل بمفاهيم العام والخاص والفردى من أجل الخاص والفردى بوصفها الواقع الحقيقى، العيانى، ومن هنا نستطيع أن نفهم اهتمامه بحقوق الإنسان، والمواطن بوصفها حقوق الفرد أولا وأساسا، ويتضح لنا أن هذا الاهتمام السياسى يتركز إلى جذر فلسفى عقلى لا يرى وجودا فعليا للإنسان إلا فى الفرد، ولا يرى ماهية حقيقية للفرد إلا فى المجتمع⁽¹²⁾.

2- العقلانية فى الجزائر حصيلة تقاطع الايديولوجيا والثقافة :

ليست العقلانية بالنسبة لجلاىلى لباس أبنا شرعيا ، للأيديولوجيا بشقيها الفلسفى والاقتصادى، فهى بالنسبة له مشروع دولة، فالعقلانية الممارسة فى الجزائر ليست إلى مسبقا من المسبقات السياسية الضرورية للنهضة والتقدم والتغيير ... هذا التوصيف قد جعل فكرة (العقلانية) عند النخبة الجزائرية كغيرها من الموضوعات والمجردات، تفتقد إلى " السيرة " فى فهمها

¹² - Djilali liabes , la falsification de l'histoire collective . Algérie Actualité . N , 1229 de 4 – 11 mai 1989 .

الصحيح ، ذلك أن العقلانية امتازت في الجزائر بأنها مطلب وجداني لبعض الفاعلين، لا يميزون سيرورتها الفلسفية ولا يستندون إلى عمقها التاريخي . فالعقلانية كفكرة أو منهج أو مطلب ضلت ملتبسة بالنسبة لفهم النخبة الجزائرية، ملتبسة على الصعيدين: الايديولوجي -والثقافي. وهذا الالتباس ينطلق من كون التراث الايديولوجي الوطني والشعبي لم يعاصر ويعايش سيرورة مشابهة لتلك التي عرفها تاريخ العقلنة في أوروبا⁽¹³⁾.

ظهرت العقلانية في الساحة السياسية بوصفها عملية استيراد لمجموعة من النظريات والأفكار والتصورات الجاهزة، وكانت في كل الأحوال منزوعة من سياقها الاجتماعي الذي ولدت فيه، وبما هي كذلك فإن "عقلانية النقل" المعتمدة من طرف الدولة الجزائرية خاصة في السبعينات تمثل نفيا أو إقصاء حقيقيا لكل تفكير عقلائي وموضوعي، وأضحت غير قادرة على النمو والتطور إلا بمقدار قوة صلتها المباشرة بمصدرها الأصلي وبقدر ما يحيل إليه، واقتصرت أشكال إبداعها على صياغة القيم والأفكار المنقولة صياغة محلية، وهكذا فقد بقينا قاصرين تماما عن امتلاك أي إمكانية للإبداع الأصيل.

لقد نشدت الحركة الوطنية، إعادة إنتاج معرفتنا بذواتنا، وذلك بالانخراط الواعي في مشروع الدولة الوطنية، التي مثلت "النمط النموذجي" على حد تعبير "جيلالي لباس"، وبملاء فضائنا ويكون شبكة مرجعية لعلاقتنا

¹³ - جيلالي لباس ، في حوار أجرته معه جريدة " Algérie Actualite " عدد 1428،

بتاريخ 10 - 17 فبراير 1993 .

الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، والفكرية، ويحل نهائيا إشكالية هويتنا، وينجز الحدث التاريخي: حدث ميلاد الدولة الحديثة من خلال مشروع ثقافي حضاري يكون نموذجها المستقبلي. لكن مفارقة هذا المشروع تكمن في انطوائه على أدوات معرفية متناقضة حملت شيئا من الجدة تمثلت في الرغبة في التعامل مع الواقع من منظور إيديولوجي سعيا منها لإنهاء بعض ما كان يسمى بالمسائل أو المشكلات الخاطئة. كما أنها حملت انطواء على الذات ورفضاً لبعض "البديهيات" الفكرية "باسم الوطنية"، و"باسم الثورة"، و"باسم الغزو الثقافي". إلا أن هذا المشروع انتهى سياسيا حين عجز عن تجاوز مرحلة الاستقلال الوطني، وانتهى اجتماعيا حين لم يقطع مع الولاءات القبلية والاثنية والجهوية، كما انتهى اقتصاديا حين لم يضع خطة واقعية وممكنة لتحقيق التنمية.

وفي نفس السياق رأى "جيلالي يابس" أن إشكالية التوفيق بين التراث الثقافي وإنجازات العقل الفكرية (الأوربية أساسا) مثلت قاسما مشتركا بين الفاعلين السياسيين والفكرين رغم اختلافاتهم، الذين استقطبوا من طرف دلالات و رموز المجتمع التقليدي الجزائري ومكوناته من ناحية والقناعات الفكرية الحديثة التي اكتسبوها من خلال تعليمهم من ناحية أخرى، لكنهم تميزوا برغبتهم في فتح آفاق مرجعية جديدة تتميز عن نموذج التراث كما وصل إلينا، كما تميزوا عن الإرث الأوروبي. بهذا المعنى كان هدف الحركة الفكرية

الوطنية إحداث تحول معرفي يترجم إلى نموذج بديل، أي نوع من العقلانية التي تمنتج فيها الايديولوجيا والثقافة.

ولقد اكد "جيلالي ليابس" على أن النموذج في هذه الحركة يخرج عن كونه مفهوما عقليا، أي فكريا ، ليتحول إلى بنية معرفية متعددة الأبعاد والدلالات ،إلا أن تلك العقلانية التي نتجت عنه تتحرك على خارطة معرفية خاصة وفريدة، يتداخل فيها المعتقد والنموذج مع المعاش، باعتبارها فعل واحد يحث التحولات لتتعدد وتكشف عن علاقة مشوهة ومصطنعة مع الواقع .

لقد برز التيار الوطني كحركة سياسية أكثر منه كحركة فكرية لها خصوصيتها واجتهاداتها ورؤاها وقراءاتها للعصر . لقد كان هذا التيار ذا طابع أمبريقي -إن جاز التعبير- يرى في أفكار الاشتراكية مصدرا يغنيه عن أي اجتهاد أو تنظير أو إضافة . ولعل غياب التنظير والاجتهاد يمثل السبب الذي حدا به في النهاية إلى الفشل السياسي والاقتصادي والاجتماعي وإلى السقوط في دوامة الآنية بدون أي تصور واضح للمستقبل ⁽¹⁴⁾ . لقد أنتج التيار الوطني في الجزائر سياسيين، لكنه لم ينتج لا مفكرين ولا منظرين .

وبتالي لم تفتح ممارسة العقلانية في الجزائر خاصة في القطاع الاقتصادي مجالا لحوار بأفاق واسعة حول الممكن وغير الممكن في واقعنا المعاش . هذا المطلب الوجداني قد حرم الفاعلين والنخبة الجزائرية في معاركهم المزعومة بمواجهة اللاعقلانية السائدة من أن يؤسسوا لقاعدة تنظرية عميقة لعقلنة

¹⁴ - Djilali liabes , la falsification de l'histoire collective . Algérie Actualité . N , 1229 de 4 – 11 mai 1989 .

الواقع المدرك، أو على الأقل لعقلنة جوانب من الممارسة الواقعية كالسياسة والتعليم والتسيير الاقتصادي... إلخ⁽¹⁵⁾. لقد برز واضحا بالنسبة " لجيلالي ليابس أن إشكالية التخلف تأتي أساسا من زاوية حقيقية فشلنا أو عجزنا عن فهم واقعنا برؤية علمية عقلانية تساعدنا على إنتاج الحلول الصحيحة والملائمة لنا ، فالعقلانية المستوردة و التي ضمن حكامنا أنها خلاص بلدنا ، جعلتنا نقع في دائرة مغلقة بدائيتها ونهايتها تتلخص في مفاهيم و نظريات جاهزة . وإزاء هذا الواقع فبدلا من محاولة تجذير أسس نقدية مستوحاة من تاريخنا و ثقافتنا تستكشف واقعنا ، فإننا انزلقنا نحو الحلول السهلة والمتمثلة تبني نموذج العقلانية الغربية، دون تمحيصات نقدية⁽¹⁶⁾، وبعيدا عن إرادة حقيقية لامتلاك شروط الإنتاج الذاتي للمعرفة، وبالتالي عجزنا عن إنتاج نظام معرفي أصيل خاص بنا وواقعنا ومشكلاته.

خلاصة :

إن العقلانية بالنسبة لجيلالي ليابس هي مشروع اضطراري بالنسبة للعرب، وهو اضطراري بقدر ما يمثل المدخل الاشتراطي لدخول العصر وبناء هيكلية مؤسسية متماسكة تحمل إمكانيات التقدم وتلفظ احتمالات الارتكاس وتبتعد عما يمكن ما يسميه بالتوفيقية التي تعتبر إحدى أهم الكوامن في احتمالات الارتكاس .

¹⁵ -ibid .

¹⁶ - ibid .

مجلة دراسات إنسانية... ..فكروني زاوي... ع(02) 2016: ص ص97-115

ومما يجدر الإشارة إليه أن رؤية جيلالي لباس " للعقلانية في الفكر والممارسة العملية تشترط المحافظة على المسافة الواقعة بين الذات والواقع، ذلك أن تلك المسافة تسمح للذات بـ:

- الرؤية المنظورية والموجهة للواقع .
- الاستشراف المستقبلي وعدم الاعتماد على الانيات والاحداث الراهنة.
- ممارسة النقد بمنطق تاريخاني على التجليات اللاعقلانية في مجتمعاتنا.